المقدمات الثابتة والنتائج المتغيرة

خطبة الدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في الجامع الأموي الكبير بحلب بتاريخ 2008/3/28م

لقد كثر الحكمُ على طريق الحقّ من خلال نتائجه، والقرآنُ الكريم عالج هـذه القضـية مصـحِّحًا ومصوِّبًا، فكم من طريقٍ صحيحة يسير أهلها على المنهاج السليم لا تظهر نتائجها العاجلـة في هـذه الدنيا، وربما أظهر الله سبحانه وتعالى نتائجها عاجلاً وآجلاً، وكم من طريقٍ خاطئة تُظهر نتائجَ خدَّاعة توهم أنها طريق صحيحة وما هي بالصحيحة.

وهكذا خاطب الله سبحانه حبيبَه سيدَنا محمَّدًا صلى الله عليه وسلم، وبهذا الخطاب يعلِّمُنا أمةَ سيدنا محمد، فقد قال في سورتي يونس والرعد: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: 46]، [الرعد: 40]، وقال في سورة غافر: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [غافر: 77].

وهكذا قدم القرآن الكريم أمام المؤمن نتيجتين اثنتين:

1- أما الأولى: فهي ظهور النتائج، وذلك حين يسير أصحاب الحق على الطريق الصحيح.

2- وأما الثانية التي قد تظهر: والخطاب لأَحَبِّ خلق الله إلى الله، فهي انتقال صاحب ذلك الطريق دون أن تظهر نتائجه العاجلة.

وحكى القرآن الكريم عن بني إسرائيل فقال : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 61]

وهذا يعني وجود الأنبياء الذين حملوا لواء الحق ودعَوا إلى الله تعالى بصدق، فلم تكن النتيجة نصرهم في الحياة الدنيا ولا سيادتهم عليها ولا ملكهم لها، بل ذهبوا ليجمعوا مترلتي النبيين والشهداء في وقـت واحد.

وهل يشك أحد في أن أنبياء الله كانوا على المنهج الصواب والطريق الصحيح؟!

إن هذا العرض القرآني ونحن في زمن الضعف، ونحن في زمنٍ تداعت علينا فيه الأمم، ونحن في زمـن نعيش فيه المحنة، ونعيش فيه تشويه الموازين وقلبَ الحقائق ومحاولة تغيير الثوابت... علينا أن نـدرك أن المطلوب إنما هو التمسك بالطريق الصحيح بدلاً من مراقبة نتائجه، فالمطلوب هو الاسـتقامة والصـدق وإخلاص الدين لله، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5].

المطلوب أن يجتمع بعضنا إلى بعض..

المطلوب أن نكون يدًا واحدة في الحق..

المطلوب أن لا نتلفت..

المطلوب أن نصحح معاملاتنا..

المطلوب أن نوقف بين يدي الله سبحانه وتعالى وجه قلوبنا..

هذا هو المطلوب..

أما النتائج التي تهزُّ اليوم قلوبنا وينبغي أن لا تهزها، فإنها مما لا يجب أن يُلتفت إليه.

لقد علَّمنا القرآن كيف نخاطب أعداءنا، وهذا الخطاب ينبغي أن نتمثل به، وأن نعيشه، وأن نحمله شعارًا لنا في مسلكنا.

وقد قال الله سبحانه وتعالى وهو يعلمنا هذا الخطاب: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: 56].

هكذا يكون الخطاب، حينما يجعل المؤمن نصب عينيه إحدى الحسنيين:

أما الحسنى الأولى فإنها سيادة المؤمنين على الكافرين في الأرض:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [النور: 55].

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21].

وأما الحسنى الثانية فهي الشهادة في سبيل الله: وذلك حين يكون الإنسان في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وحينما يتجاوز دار التكليف هذه إلى دار التشريف، وحين ينتقل من دار البلاء إلى دار النعماء.

ولماذا يتمسك الإنسان بهذه الدنيا إذا كانت صلته بالله سبحانه وتعالى قوية؟

أليس الخروج من هذه الدنيا إذا كنت على الإسلام إنما هو كمن يحرر طائرًا مقفَّصًا من قفصه؟

فلم لا نتصور ذلك؟

الجنين الذي يعيش في بطن أمه لا يريد الخروج إلى الدنيا، بل يأنس بالدم الذي غُمس فيه، ويأنس بالظلمة، ويبكي حين يخرج إلى الدنيا، لكنه يعلم بعد ذلك أنه كان خاطئًا.

وهكذا – ونحن في الدنيا – نكره الخروج من الدنيا مع أننا نعيش آلامها وذلها وتعبها ونصبها، فإلى متى نبقى ونحن في بُعدٍ عن الشوق إلى لقاء الله؟

"من مات ولم يغزُ ولم يُحدِّث نفسَه بالغزو مات ميتة جاهلية" هكذا أخبر الصادق المصدوق.

نعم، إنه حب الدنيا، إنه التمسك بالحياة، هذا الوصف الذي وصف الله به اليهود،

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ [البقرة: 96].

سلّم الله الأيدي التي عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بيعة الرضوان على الموت.

نعم عاهدوا رسول الله على لقاء الله و لم يكن بعدها قتال، لكنه الاستعداد الذي ظهر في ذلك الوقت.

وسلّم الله هذه الأيدي في فلسطين وفي مقاومة العراق وعلى كل أرض من بلاد الله تدفع كيد أعداء الله.

إنها خرجت عن هذا الأسر الذي غلف قلوبنا.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ النصر أو الشهادة.

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾

وقد يكون هذا العذاب عاجلاً وقد يكون آجلا، لا تقولوا إننا ندعوا على أعدائنا ولا يستجاب لنا، الاستجابة قد تكون عاجلة وقد تكون آجله.

فحين دعا موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: 89] فكانت الإجابة بعد أربعين سنة.

ثقوا بالله ، استقيموا ولا تتلفتوا لأن المرغبات والمرهبات في هذا الزمن التي تصرف الشباب وتصرف الكبار وتصرف الصغار عن الهدف كثيرة كثيرة.

لا مخرج لنا من أزماتنا إلا بالتقوى، فقد قال الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: 2].

إذا أردنا الخروج في عالمنا الإسلامي من أزماتنا لا طريق لنا إلا بالتقوى، والتقوى اجتناب المحظورات الشرعية التي حضرها الله سبحانه.

العفة، ترك المحرم بكل أصنافه، المالية والبدنية، والنفسية، والقلبية....

فإن كنّا كذلك لا يغلبنا عدوًا أبدًا، اللهم لا توجه قلوبنا إلا إليك واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.